عن البعض ولا يكون عالما بالبعض فليس من شرط المجتهد ان يكون مجيبا عن كل ما يسأل عنه ولذلك توقف كثير من الائمة في الجواب عن بعض المسائل فلا يجوز لاحد أن يفتي في مسألة من المسائل الا اذا كان محيطا بأدلتها وما لا فيمسك عن الفتيا فيها ولا يبقى بعد هذه الحالة الا تحصيل الادلة الجزئية في آحاد المسائل من نصوص اواقيسة فاذا اطلع على دليل مسألة كان من أهل الفتيا في تلك المسألة ولا يضر كونه غير مطلع على دليل المسألة الاخرى

(ثم قال) واعلم ان الاجتهاد عبارة عن بذل الجهد في طلب حكم من الاحكام الشرعية مما هو عارف سلوك طرقها وله شروط وهي قسمان قسم في المنظور فيه وقسم في الناظر ، أما المنظور فيه فيشترط فيه أن لا يكون في محل القطع فان محال القطع لا مجال للاجتهاد فيها كأصل وجوب الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما يحكم فيه بأدلة قطعية لا يسوغ خلافها ، وأما الناظر فيشترط فيه أمران احداهما ان يكون عارفا بقوانين الادلة وشروطها وكيفية استخراجها ، والثاني أن يكون متمكنا من استخراج الدليل خاصا في المسألة التي يجتهد فيها ، ثم اطال الكلام في ذلك . اه

اللغة العربية (*)

من هم الاصليون في الجزيرة العربية

(القحطانيون (١) أم العادبون (٢))

هذه المسألة محل ما يخيل لي من المسائل الصعبة التي لم يتصد لها أحد بعد فيما أعلم ليزيح عنها الخفاء أو ليقطع فيها الالتباس وكأني بالشائع المتعارف ان العاديين والصالقة

(*) تابع لما نشر في الجزء السابق وهو خطاب للاستاذ جبر افندي ضومط

(١) أعني بالقحطانيين هذا الفرع الذي كان يتكلم بالقحطانية السريانية والحميرية التي خلفتها

(٢) وأعني بالعاديين الذين كانوا يتكلمون بالعربية تسمية بأشهر قبائلهم عاد

وغيرهن من القبائل العادية هم الاصليون وان القحطانيين تغلبوا عليهم وحلوا محلهم فانقرض هؤلاء وبقي أولئك . والذي أراه ان القحطانيين هم قرارة سكان العربية والاصليون في اليمن وجباله وما يليها من المواطن كحضرموت ونجد وأرض البحرين وجنوبي الحجاز مما يتصل باليمن . وان العادين جاءوا اليها متأخرين ومع الايام وبالاستيلاء على طريق التجارة قووا شيئاً فشيئاً الى أن دانت لهم العربية كلها واخضعوا القحطانية لسلطتهم واستمروا على ذلك زماناً الى أن أصابت احدى دولهم جائحة سماوية في الراجع فذلوا وقامت القحطانية تطلب الملك والاستيلاء ورفع سلطة العادين عنها فتم لها ذلك . وما زال النزاع بين الفريقين يتجدد من زمن الى زمن الى أن قام الفرع الحميري الظفاري فتغلب على البلاد واشتدت وطأته على أهل مأرب فارتحلوا في البلاد فمنهم من قصد نجران ومنهم من أم عمان ومنهم من استمرت به رحلته حتى بلغ العراق وهم لخم وغسان . وأذلوا من بقي في البلاد من العادين وأشياعهم من العدنانيين في الحجاز ونجد واليمامة وأرض البحرين ذلا شديداً فاشتدت بسبب ذلك البغضاء بين القحطانيين والعدنانيين حتى ضرب بها المثل واستمر ذلك فيهم الى أن ظهر الاسلام فأخمد ظهوره شيئاً من تلك الثائرة بما كان له من التأثير في نفوسهم وبما شغلهم به من المغازي والفتوحات وامتداد السلطة والغلب . على ان تلك العداوة لم تلبث ان عادت الى شدتها في أيام المروانيين من بني أمية وانتقلت مع القوم حيث انتقلوا . وبلغ من حدتها في الجيل الرابع للهجرة المبلغ الذي وصفه أبو الطيب المتنبي في احدى كافوريانه حيث يقول في شبيب الخارجي وكان خرج فيمن تبعه من قيس على كافور وحاصر دمشق وكاد يفتحها عنوة

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على الصلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

والذي يظهر لي أيضا ان العدنانيين الذين بقيت فيهم اللغة العربية كانوا من العادين (الا من انضم اليهم بأخرة من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل) ولذلك أذلتهم القحطانية وناصبتهم العداء من حين ظهرت على العادين أسلافهم في أوائل المسيحية ولم تألُ جهداً عن اذلالهم والتحكم فيهم الى أن عادت لهم الدولة بواسطة قريش وبفضل الاسلام

فان لم يكونوا أي العدنانيين من العادين والمبالغة في النسب فلا أقل من انهم كانوا حلفاءهم يقاتلون لهم تجارتهم وبقوا على ذلك أحقابا متطاولة جعلت لسانهم

وعصبيتهم مع لسان العاديين وعصبيتهم أمرا واحدا . أقول هذا وأنا أرجح ما قلته أولا أي ان العدنانيين (معظمهم ان لم يكن كلهم) عاديون (١) داراً ولساناً . واقامة الدليل على ذلك خارج عن موضوعي ولعلي أعود اليه في فرصة أخرى

﴿ بيان أن القحطانية أصلية في شبه جزيرة العرب ﴾

(وأن قرارة دارهم اليمن)

قلت ان المسألة صعبة الحل لما في الاخبار المنقولة الينا من التشويش والتضارب وكان يمكنني أن أضرب عنها صفحا الا أني لا أرى هيئة من أهل العلم والادب أرقى من الهيئة التي أمامي الآن تستطيع أن تتبعني في هذه المزالق التاريخية ولذلك لا أرى بدا من الاشارة الى البراهين التي حملتني على ترجيح ما قلت أي ان القحطانيين هم أصليون في جزيرة العرب وقرارتهم منها اليمن وهم سابقون فيها على العاديين . وبيانه

(أولا) انه لا خلاف أصلا بين العدنانيين والقحطانيين لا في تاريخ ولا في تقليد أن القحطانية هي العريقة بسكنى اليمن وانها هي التي بقيت في البلاد بعد انقراض الدولة العادية . وقد أجمع المؤرخون عن آخرهم على تسمية العاديين بالعرب البائدة بعد ما نقلوا عنهم ما نقلوه من الغنى والقوة وضخامة الملك . ولو كانوا عريقين في البلاد كالقحطانيين ولهم مثل ما لهم من العدد والتأصل في السكنى لكان يستحيل انقراضهم حتى لا يبقى من يشار اليه منهم فالاقرب الى المعقول إذن ان المعنى بانقراضهم انقراض دولتهم . ولما انقرضت دولتهم وزالت السلطة من أيديهم ظهر بعدهم بالضرورة سكان البلاد الذين كانوا خضعوا لدولتهم وظهورهم معناه خروجهم من ربقة العاديين واسترداد استقلالهم أولا ثم منازعة العاديين الغلبة والملك في ديارهم التي نزلوها الى ان تم لهم ذلك وذهبوا بالملك والسيادة من أيديهم جملة . وهذا معنى انقراضهم

(ثانيا) كانت عاد في هذا الرمل من الاحقاف بين عمان واليمن الى حضرموت فكيف يعقل انهم انقرضوا ولغتهم باقية في هذه البلاد لحد هذه الساعة . ثم كيف

(١) من أكبر الفروع العدنانية قيس عيلان . وقيل في عيلان هذا انه عبد لقيس وقيل فرس له ولكنني ارجح ان عيلان تحريف عيلام . وعيلام بلاد شرقي راس خليج فارس وهي خوزستان او قسم من خوزستان . وخوزستان تركيب فارسي يعني به بلاد خوز . وخوز وكوش احدهما محرف عن الآخر . وكوش وقيس كذلك في الارجح . وعليه فقيس عيلان تعني به كوش عيلام اي اضيفوا الى المكان الذي جاؤا منه وهو ليس ببعيد

يغرضها أهل اللغة وتبقى اللغة نفسها ؟ ان هذا لغريب واغرب منه ان يكون العاربون الذين انقرضوا هم أهل البلاد الاصليون والذين قرضوهم من القحطانيين دخلوا عليهم البلاد غاصبين ولهم لغة خاصة بهم ثم بعد ان استتم ملكهم ولقنهم مئات سنين عدنا نرأينا في آخرها أن لغة البلاد حينئذ كانت لغة العاربين الذين انقرضوا لا القحطانيين الذين بقوا

(ثالثاً) يكاد يكون كالمجمع عليه ان اليمن دار القحطانية واليك ما نقل في ذلك . قال الامام العلامة الطبري : وولد لسبا ابنان احدهما فالغ ومعناه بالعربية قاسم وانما سمي بذلك لان الارض قسمت والالسن تبلبلت في أيامه وسمي الآخر قحطان فولد قحطان يعرب ويقطان ابنا قحطان بن عامر بن شالخ فنزلا أرض اليمن وكان قحطان أول من ملك اليمن (جزء أول طبع ليبسك وجه ٢١٧) وقال ايضا وجه ٢٢٢ ولحقت بنو قحطان ابن عامر باليمن فسميت اليمن حيث تيامنوا اليها

وقال ابن خلدون : فاما عاد فكانت مواطنهم الاولى باحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت . وقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب بادية مخيمين ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وأعلام وقصور حسبما نذكره الى ان غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان . (قال) وكان ابوهم عاد فيما يقال أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده ـ وعاش الف سنة ومتي سنة ـ وذكر المسعودي ان الذي ملك من بعد عاد وشداد منهم هو الذي سار في الممالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق (الجزء الثاني طبعة بولاق وجه ١٩) . وقال ايضاً وجه ٢٠ ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد واتصل لهم الملك فيما يقال الف سنة او يزيد . ولم يزل ملكهم متصلا الى ان غلبهم عليه يعرب بن قحطان واعتصموا بجبال حضرموت الى ان انقرضوا

وقال ايضاً (قال ابن سعيد) فيما نقله عن كتب التواريخ التي اطلع عليها في خزانة الكتب بدار الخلافة من بغداد قال كانت مواطن العمالقة تهامة من ارض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق امام النهاردة من بني حام وجه ٢٧ وقال أيضاً واما (جرهم) فقال ابن سعيد انهم امتان امة على عهد عاد وامة من ولد جرهم ابن قحطان ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك اخوه جرهم الحجاز — وجه ٣١

وظاهر من هذه النقول وغيرها ان القحطانيين اصليون في الجزيرة وقرارتهم منها اليمن واما العاربون واخواتهم العمالقة فجاءوا على اثر مضايقة الملوك النهاردة لهم . فنزل العاربون احقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر ونزل بقية

اخوانهم من العمالقة وطسم وجديس وجاسم ارض البحرين وعمان ونجد والحجاز الى تيماء . ولم يلبثوا مدة بعد دخولهم حتى صار لهم الغلب على كل الجزيرة وشادوا لهم دولة من اعظم واقوى الدول التي قامت في تلك البلاد ومن ثم غزوا (١) الشام ومصر والهند والعراق وما زال الملك فيهم الى ان ضعفوا في اواخر دولتهم الثانية فغلبهم على الملك يعرب بن قحطان وازال سلطتهم عن اليمن

﴿ نتيجة ما ذكرناه ﴾

ان المتدبر ما مر بنا ه ان مهد الساميين هو جزيرة العرب وأن القحطانيين هم الاصليون في البلاد وقراراتهم اليمن وان العادبين قدموا عليهم من ارض بابل » بحكم على ما ارجح ان القحطانية الاولى انشعبت الى فرعين فرع بقي في شبه جزيرة العرب وفرع ذهب شمالا الى العراق واستمر بابل وهناك تأثل هذا الفرع وما زال اهله حتى زاحمهم الناردة ابناء كوش (٢) فخرج من هناك اشور وبنى نينوى ورحوبوت عير وكالح وراسن بين نينوى وكالح على ما جاء في التاريخ المقدس الاصحاح العاشر من سفر التكوين . وخرج ايضاً عاد وعمالق وقبائلهما فعادوا الى العربية بعد زمن طويل ونزلوا بين اظهر القحطانيين وكان قد تميز لسانهم واستقل كما تميزت قبائلهم واستقلت عن غيرها ايضاً

والارجح ان الذين رحلوا الى نينوى وكالح كانوا من الحضر اهل المدن والقرى بدليل انهم بنوا المدن حالا واما الذين رحلوا الى الجنوب فكان اكثرهم اهل ظعن وخيام . وعبارة العلامة ابن خلدون واضحة في ذلك فانه ذكر أنهم لما زاحمهم بنو حام انتقلوا الى جزيرة العرب وسكنوها بادية مخيمين . ويقوي ذلك ما هو متواتر مشهور من سكنى العاديين رمال الاحقاف بين عمان واليمن الى حضرموت والشحر . وسكنى بديل وراحل وغفار من العمالقة بنجد وبنو الارقم منهم بالحجاز الى تيماء . وكل هذه البلاد من منازل اهل البادية والغالب على اكثر اهلها الترحل والانتقال كانوا ولا يزالون لحد هذه الساعة

---

(١) لا يبعد ان يكون غزوهم الهند غزو تجارة ومهاجرة اكثر منه غزو فتح وغلب

(٢) كانت البلاد تسمى باسم الشخص او الشخص يسمى باسم البلاد وعليه فكوش هذا اما تسمى باسم البلاد كوش أو البلاد تسمت به فيكون اصل الناردة من كوش أو غوز وتعرف اليوم بالاهولز أو خوزستان وهي بلاد عيلام القديمة أيضاً

وارى اني وصلت على غير قصد مني الى التقليد المشهور الذي يجعل السريانية اقدم من العربية لانا رأينا الدليل التاريخي في جانب ان القحطانية متقدمة على العادية وسابقتها في الزمان . والقحطانية كما بينا من نص المؤرخين هي السريانية كما ان العادية هي العربية

﴿ تجريح ما قاله العلامة نولدكي ﴾

لنرجع الآن الى ما قاله العلامة نولدكي في شأن لغة سبأ . قال هذا العلامة ما يؤخذ منه أن اللغة السبئية هي قسيمة اللغة العربية وأخت لها انشعبتا من الفرع الجنوبي ونسبتها الى العربية كنسبة الحبشية اليها أي الى العربية . وأنا أقول ان كان يقصد بالسبئية الحميرية فبه لكن تكون السبئية والحبشية شعبتين من القحطانية أو السريانية لان القحطانية والسريانية كما بينا بالنص التاريخي هما لغة واحدة أو هما شعبتان من جذم واحد هو القحطانية القديمة . وان كان يريد أن السبئية هي لغة أخرى غير الحميرية الظفارية أي لغة الدولة التي قامت قبل التاريخ المسيحي بقليل وتعرف عند القوم الآن بدولة سبأ وريدان وانها كانت أيضا لغة بلاد سبأ التي عاصمتها مأرب وفيها السد المشهور فالاستاذ نولدكي واهم والتاريخ يعارض رأيه لان لغة أهل هذه البلاد أعني أرض سبأ (١) كانت منذ أوائل التاريخ المسيحي ولا تزال الى الآن اللغة العربية العادية العدنانية والتاريخ مؤيد ذلك واليك البيان .

جاء في كتاب وصف جزيرة العرب للعلامة الهمداني طبع ليدن وجه ١٣٤ الى ١٣٦ قطعة خصها هذا العلامة بوصف لغات أهل الجزيرة العربية في أيامه «فليطالع هذه القطعة في موضعها من أراد» والذي يظهر منها ان الحميرية كانت لا تزال لغة حية في كثير من جبال اليمن واليك ما يقول في لغة بعض تلك البلاد «حقل قتاب قالى ذمار» الحميرية الفحة المتعقدة (وظفار مدينة هذا القسم). حراز والا خروج وشم وماضح والأحبوب والجحادب وشرف أقيان والطرف وواضح والمعل — خليطي من متوسط بين الفصاحة والاسكنة وبينها ما هو أدخل في الحميرية المتعقدة لاسيما الحضورية من هذه القبائل — نجديّ بلد همدان البون منه المشرق والخشب — عربي مخلط حميرية — من ذمار الى صنعاء متوسط — صنعاء في أهلها بقايا من

(١) أرض سبأ على ما يظهر من الهمداني هي بلاد عاد لانها الملاة التي يترع عليها بيحان ومأرب والجوف ونجران والهجيرة همداني وجه ٢٧ وصف جزيرة العرب

العربية المحضة ونبذ من كلام حمير — شبام أقيان والصانع وتخلى حميرية محضة

والنفيس في هذه القطعة لهذا العلامة انه فرق بين الحميرية والعربية . وسمى البلدان التي كان يتكلم فيها بالعربية أو بالحميرية الى أيامه . وأنفس منه انه بين الفرق بين لغات المتكلمين بالعربية فقال في بعضهم انهم فصحاء وفي آخرين انهم أفصح وفي آخرين ان لغتهم متوسطة أو خليطي كما بين الفرق في لغات المتكلمين بالحميرية فقال عن بعضهم انهم غثم وعن آخرين ان لغتهم حميرية محضة وعن آخرين انها حميرية متعقدة وعن آخرين انها داخلة في الحميرية المتعقدة أو فيها عسرة من اللسان الحميري

ثم اليك ما قاله في لغات أهل حضرموت وسبأ قال ما نصه بالحرف الواحد : حضرموت ليسوا بفصحاء وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصدف . سر ومذحج (١) ومأرب وبيحان وحريب (وهي من بلاد سبأ) فصحاء وردىء اللغة منهم قليل . سكن الجوف (٢) فصحاء الا من خلطهم من جيرة لهم تهامين . ثم الفصاحة من العرض في وادعة فجنب فيام فزيد فبني الحارث فما اتصل ببلد شاكر من نجران الى يام فارض سنحان فارض نهد . اه همداني وجه ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٦

يظهر من شهادة هذا العلامة ان أهل مأرب والجوف ونجران وهي البلاد التي كانت فيها الدولتان السبئية والمعينية كانوا في أيامه أفصح من الكنديين قبيلة امرؤ القيس وقبيلة المتنبي أشهر شاعرين قبل الاسلام وبعده . وكذلك كانوا في صدر الاسلام . فان مذحج وبني مرة وطيّ والاشعريين أبناء عريب بن زيد ابن كهلان بن سبا والهمدانيين أبناء مالك بن زيد بن كهلان بن سبا كلهم كانوا من فصحاء أهل العربية العدنانية المضرية في صدر الاسلام وقبله ومع انهم كانوا يدعون انهم هم والحميريين أبناء عم « لان كهلان بن سبأ وحمير بن سبأ » لم يكن في لسانهم شيء من الحميرية بل كانوا في فصاحتهم العربية كفصاحة قبيلة امرؤ القيس المشهور أن لم يكونوا أفصح منهم . واذا نظرنا اليهم أي الكهلانيين من ولد سبأ وممن كان منهم بسكن مأرب والجوف في الجيل الاول للمسيح أو في بدأ الجيل الثاني رأيناهم أيضا عربا يتكلمون بهذا اللسان العربي . وبيانه ان الأزد من ولد كهلان وكانوا في مأرب

(١) وفي الصحاح مذحج مثال مسجد أبو قبيلة من العرب وهو مذحج بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ (٢) فمن أراد حضرموت من نجران والجوف جوف همدان ومأرب فخرجه الحبر . همداني وجه ٨٤

فلما اشتدت عليهم وطأة الحميريين ملوك ظفار على الارجح ارتحلوا من ديارهم جماعات كثيرة فمنهم من وصل العراق ومنهم من وصل الشام ومنهم من وقف بنجران ومنهم بمكة ومنهم يثرب ومنهم وهم الطائيون (وكانوا يسكنون الجوف) وحلوا أولا الى فيدو سميرا ثم احتلوا الجبلين اجا وسلمى وكل هؤلاء كانوا عرباً ومن الفصحاء الذين ترتضى فصاحتهم في العربية لم يسمع ولم يعرف اصلا عن ملوك الحيرة من المناذرة ولا عن ملوك الشام من الغساسنة ولا عن الاوس والخزرج من أهل المدينة ولا عن الطائيين في جبليهم (وهؤلاء هم الذين ارتحلوا من ارض سبا قبل سيل العرم او بعده بقليل) أنهم تكلموا غير هذا اللسان العربي المضري . ولو كانت لغتهم الحميرية « اوالسبئية» لاستحال ان تنقرض فلا يبقى لها أثر في مدى اربعة قرون كما لم تنقرض الحميرية من ظفار ولا من بلاد صنعاء في مدى اربعة قرون مع انهم كانوا في ملكهم المضريين ودولتهم الغالبة القاهرة بعزهاوعن الاسلام وقداسلم القوم عن آخرهم منذ بدء الاسلام

﴿ ماذا نصدق اذاً ﴾

« التاريخ والعقل ام الآثار التي وجدها القوم مؤخراً »

« في مأرب والجوف ونجران »

الجواب . أولى بنا ان نصدق التاريخ والعقل من غير ان نجرح في صدق الآثار وذلك بأن نقول ان دلالة الآثار مغلوط في تأويلها ويمكننا ان نؤولها بما يوافق التاريخ والعقل — وبيانه ان الآثار التي اكتشفها القوم (العلامة ادورد غلازر ويوسف هاليفي وبولبوس اوتين وتومس ارنو وآخرون) على ماتقله العلامة تزيدان في كتابه التمدن (العرب قبل الاسلام) هي آثار واقعية لاتشك بها . ولا يشك ايضا أنها من آثار الدولة الحميرية الظفارية التي استولت على بلاد سبا في الجيل الاول قبل المسيح . نسلم بكل ذلك . ولكننا نقول ان هذه الدولة كان حكمها في بلاد سبا حكم دولة الاتراك الاخيرة في اليمن فانا لانعدم آثارا وعثوشا كثيرة في صنعاء وغيرها من مدن اليمن مكتوبة باللغة التركية وكذا لايصدق الاستدلال بمثل هذه الآثار على أن لغة اليمن هي اللغة التركية كذلك لايصدق الاستدلال بهذا

القدر الذي وجده القوم من القوش على ان لغة بلاد سبا أغنى بلاد مأرب والجوف كانت لغة حميرية . وهذا التلميح يرى منه العارف المتدبر ما ينغني عن اطالة الشرح والاسهاب فان مقالتي والغرض منها لا يحتملان من اطالة الشرح فوق ما أسلفته . ولكني ارجح ان المستقبل سيكشف لنا آثارا غير التي اكتشفت لحد الآن وتكون دلالتها وفقا لما نقلته وفوق كل ذي علم عليم

﴿ في سبب غنى اللغة العربية واتساع دائرة الفاظها وعباراتها ﴾

(واقتدارها على التعبيرات الفلسفية والاجتماعية وما الى ذلك)

« بما فاقت به سائر اخواتها ولا تقل فيه عن اعظم واشهر لغات العالم سواها »

ان العلامة نولدكي يُعجب باتساع قاموس هذه اللغة الشريفة ويذهب الى ان ذلك مقتبس عن الارامية بما كان لاهلها من مخالطتهم الاراميين بالتجارة والجوار . والذي حمل العلامة الموما اليه على هذا التعليل هو على الراجح ما كان يظنه ان اللغة العربية هي لغة القبائل العدنانية في الحجاز ونجد فاستبعد من ثم ان يكون لمثل هؤلاء القوم الذين غلبت عليهم البداوة مثل هذه اللغة الواسعة . اما وقد تبين لنا ان هذه اللغة كانت لغة الدولة العادية دولة غلبت على البلاد العربية كلها وامتدت سلطتها الى الشام ومصر وافريقيا ودامت سيدة التجارة على ما نظن ما يزيد على الف وخمسمئة سنة اولا تحت اسم الدولة العادية وعلى نحو من ثمانمئة سنة تحت اسم الدولة السبئية (١) فلا داعي لمثل تعليل العلامة نولدكي . وما زال العاديون ومن خلفهم باسم السبئيين أرباب تجارة وزراعة حتى بعد ان تغلب عليهم الغساريون

(١) اذا كان يعتمد على اشارات اللغة البعيدة فارجح ان اسم سبا جعل لقبا لهذه الامة التاجرة لان معنى « سبا » تاجر او تجارة وان الحبشة ومن جاورهم من البلدان لقبوهم بهذا اللقب وفقا لما عرفوه عنهم . فان هذا الاصل اي « سبا » يفيد في اللغة الحبشية معنى التجارة على ما سمعت ولا يزال مألوفا بهذا الاستعمال اما في لغتنا العربية فقد خرج عن هذا المألوف وبقي فيه ما يدل على سابق استعماله في قولهم سبأ الخمر وسباها . وفي السباء بمعنى بياع الخمر وفي البيأة بمعنى السفر البعيد الذي كانت تقتضيه تجارة العاديين . وفي السباء والسبا بمعنى المزن يحمله السيل من بلد الى بلد . وشاع هذا الاستعمال حتى اطلق على بلادهم الاصلية فعرفت به أخيرا عند الحبشة والقحطانيين من اهل اليمن

بمئات من السنين وسدهم شاهد يؤيد ماذكرنا . ان الامة التي بنت مثل سد مأرب وقصر غمدان وغير هذين من السدود والقصور والمصانع ووصلت من الغنى الى الدرجة التي ضربت بها الامثال لايستبعد ان تكون لغتها في الغنى والاتساع كاللغة العربية .

والمرجح عندي انه لم يقم في سوريا ومصر والعراق دولة اعظم غنى وتجارة من الدولة العادية في عمان وحضرموت واليمن . ولم يقتصر العاديون على التجارة — والتجارة لوحدها من اكبر الاسباب لارتقاء لغة الامة واتساع دائرة الفاظها وتراكيبها — بل كان لهم في الزراعة شأن لم يبلغ البابليون ماهو اعظم منه على خصب بلادهم وان فيها النهرين العظيمين الفرات والدجلة فانهم بنوا سد مأرب وثمانين سدا غيره في يحضب العلو

وبالربوة الخضراء من ارض يحضب ثمانون سدا تقلس الماء سائلا (١)

وسد مأرب هو احدى اعاجيب الدنيا وكان لهم عن يمينه وشماله الجنتان اللتان مازال صدى ذكرهما يتردد في أوديه التاريخ مئات سنين بعد خرابهما . ولعلي لاأكون مبالغا اذا قلت ان نسبة سد اصوان على ضخامته في عصرنا الحاضر الى سد مأرب هي كنسبة الصبي الصغير الى الرجل الكبير وأما قصورهم وهياكلهم التي بنوها فمنها قصر غمدان . وقد بقي هذا القصر والهيكل قائما الى خلافة عثمان ابن عفان وكان من الفخامة والضخامة على مايضارع أعظم القصور البابلية . واليكم ماجاء في وصفه نقلا عن ياقوت الحموي

قال مانصه — فقال « ليشرح » ابنوا القصر في هذا المكان فبني هناك على أربعة أوجه وجه ابيض ووجه احمر ووجه أصفر ووجه اخضر . وبني في داخله قصرا على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعا . وكان ظله اذا طلعت الشمس يرى على عينان (٢) وبينهما ثلاثة أميال . وجعل في اعلاه مجلسا بناه بالرخام وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كاعظم مايكون من الاسود . فكانت الريح اذا هبت الى ناحية تمثال من تلك التماثيل

(١) همداني وجه ١٠١ (٢) ارجح عينان على مافي وصف جزيرة العرب

دخلت من مؤخره وخرجت من فيه فيسمع لها زئير كزئير السباع . وكان يأمر بالمصابيح تسرج في ذلك البيت ليلا فكان سائر القصر يلمع من ظاهره كما يلمع البرق فاذا اشرف عليه الانسان من بعض الطرق ظنه برقا او مطرا ولا يعلم ان ذلك ضوء المصابيح . اه

وقد نقل ياقوت هذا الوصف عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي ولا يبعد ان يكون هشام هذا قد أخذ ما نقل عنه من الوصف عمن شاهدوا القصر قبل ان ان هدم بأمر الخليفة عثمان . ويوافق هذا الوصف المشهور ما جاء منظوما عن ذي جدن الهمداني قال

دعيني لا أبالك لن تطيقي ... بناك الله قد انزفت ريقي
وهذا المال ينفد كل يوم ... لتنزل الضيف أو صلة الحقوق
وغمدان الذي حدثت عنه ... بناه مشيدا في راس نيق
بمرمرة واعلاه رخام ... نعام لا يغيب بالشقوق
مصابيح السليط يلحن فيه ... اذا يمسي كتوماض البروق
فأضحى بعد جدته رمادا ... وغير حسنه لهب الحريق

والظاهر مما قاله هذا الشاعر في بيته الاخير أن آثار هذا القصر كانت ظاهرة في ايامه وكان يظهر عليها اثر النار لانهم استخدموها في هدمه على ما يرجح

وقد ذكر الهمداني عدة محافد وقصور في كتابه وصف جزيرة العرب واليك ما قال ـ ونذكر الآن المشهور منها ذكرا مرسلا فاولها واقدمها غمدان ثم تلفم . وناعط وصرواح . وسلحين بمارب . وظفار وهكر . وضهر . وشبام . وغيمان . وبينون ذو يام وبراقش . ومعين . وروثان . وارياب . وهندوهنيدة . وعمران والنجير بحضرموت اه وجه ٢٠٣

والارجح عندي ان معظم هذه الآثار كان في ايام الدولة العادية والسبئية الاولى دون الحميرية فان هذه كانت دولة ظلم وبغي اكثر مما كانت دولة تجارة وزراعة او دولة عدل وأمن . فان في زمانها خرب السد المشهور وأقفرت الجنتان في ارض سبا وفي ايامها كانت ملوك حمير تسطو على الاعراض وتحرق المخالفين

في الدين وتذل الكهلانيين والعدنانيين وتسومهم كل نوع من الخسف فاضطروا الى مهاجرة اوطانهم مرة والى الاستنجاد بالحبشة مرة اخرى وما زال سوء المآل والتدبير وشدة الظلم مرافقا هذه الدولة حتى اقرضت ولم تطل ايامها كثيرا. ولعل الاحباش كانوا خيرا منها للبلاد. فاني ان اذكر أن هذه الدولة اعني العادية اولا والسبئية ثانيا اعتنت بالتعدين كما اعتنت بالتجارة والزراعة والصناعة ولا تزال آثار عشرات من معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والحجارة الكريمة في اليمن ونجد والحجاز وعلى جانب افريقيا المقابل شاهدة على ما كان لهذه الدولة والامة من الاقتدار والهمة والنشاط. وارجح ان المستقبل سيرينا من آثارهم التي لا تزال تحت الردم والرمال ما يزيد عن آثار اخوانهم الكنعانيين والفينيقيين

قلت واعيد القول ان امة كهذه الامة وشعبا كهذا الشعب الذي من بقاياه العرب العدنانية في نجد والحجاز والكهلانية في ارض سبا وحضرموت وعمان حري بان يكون له لغة كاللغة العربية سيدة اللغات السامية. ولعلها سيدة اللغات القديمة كلها فقد ماتت تلك وبقيت هذه وستبقى بعدُ اجيالا لا يعلمها الا الله مهما عورضت واضطهدت او سودرت واتهمت

* أرى أني استوفيت كل ما في وسعكم من الاصغاء فلا يليق بي من ثم ان احملكم فوق ما حملتم فدعوني اختم بذكر خلاصة ما ارائي وصلت اليه بالمسلك التاريخي الذي سلكته في شأن الارومة السامية ونسبة اللغات المعروفة منها بعضها الى بعض فاقول (١) ان اللغة السامية كان مهدها في البلاد العربية والارجح ان قرارتها كانت بلاد اليمن وما اليها من السروات (٢) انشعب منها فرع الى بلاد بابل وبقي فرع في قراراته الاولى وهم القحطانية الاولى. ثم الفرع الذي اتجه شمالا الى العراق انشعب منه شعبان شعبة تسكن المدن واخرى تسكن البدو. (٣) ما زال هذان الفرعان متجاورين الى ايام دولة النمارذة (* فضيقت هذه الدولة

* النمارذة ملوك كوشيون من كوش او خوز وهي بلاد خوزستان الآن وكانت لغتهم الارامية كما يظهر فان نمرود او نمروذو مصغر نمرو اللغة الارامية وارجح انهم جاءوا من بلاد =

عليها واضطرت كثيرين منهم الى الجلاء عن البلاد فجلا اهل بابل العظيمة وغيرها من مدن العراق الى ارض الجزيرة وعمروا راسن وكالح ونينوى وغيرها من المدن الاشورية وجلا كثيرون آخرون معظمهم من اهل البدو الى جزيرة العرب موطن اسلافهم الاقدمين ونزلوا الحجاز ونجد وارض سبا وعمان . وكانت لغتهم قد استقلت وتمايزت عن القحطانية التي فارقها اجدادهم الاولون في اليمن ثم ما لبثوا ان استولوا على ملك القحطانيين وضيقوا عليهم في يمنهم كما كان الجارودة قد ضيقوا عليهم في جوار بابل فهاجر جماعة كبيرة منهم الى الحبشة وكان هاجر قبلها او اثناءها جماعة اخرى الى الاهوة والشطوط المقابلة من أفريقيا فكان منهم هناك الاهرية والحبشية . ثم هاجرت جوال اخرى من العمالقة والعاديين الى الشام وشطوط المتوسط اما راسا من العراق هربا من الجارودة او من البلاد العربية بقصد التجارة والاستيطار . والارجح أن كان الامران معا . ومن هؤلاء المهاجرين كان العبرانيون وامم الشام من الكنعانيين والفينيقيين . وعليه تكون العبرانية الفينيقية والعربية شعبتين من الفرع العادي والحميرية والحبشية من الفرع القحطاني

هذا ما تدل عليه التقاليد وما وصلنا اليه من شذرات التواريخ واظن ان الابحاث الفيلولوجية لا تنافيه ان لم تطابقه . ومعرفتي القليلة بالعبرانية والسريانية تسوغ لي بعض التسويغ ان اقول ان العبرانية اقرب الى العربية مما هي الى السريانية . ولو لم يكن بينهما من المقاربة الا ان في كليهما اداة للتعريف « ها » في العبرانية و « آ » في العربية فوُقف عند العرب مع الحروف القمرية على اللام بدلا من المدّوادغم اي حرف المد بالحروف الشمسية — لكفى ذلك شبها في ان يجعل اللغتين صنوين من فرع واحد . وكذلك اقول ان الارامية ويدل فيها على التعريف بالوقوف على الالف (اي حرف المد) ينبغي ان تكون صنوا لتلك التي يدل فيها على التعريف بالوقوف على حرف الغنة اي « النون او الميم » فان

= العرب من اليمن عن طريق البحرين عبروا الخليج الفارسي من هناك ثم لما قويت شوكتهم غزوا بابل وطردوا من كان سبقهم الى هناك فذهب بعضهم شمالا الى بلاد اشور وذهب آخرون جنوبا الى الحجاز ونجد والاحقاف وهي بلاد سبا كما مرت بنا الاشارة الى ذلك

هذين الحرفين اعني حرف المد وحرف الغنة يبدل احدهما بالآخر. وفي العربية ما يدل عليه ويسمى تنوين الغنة ومعناه الوقوف على حرف الغنة بدلا من الوقوف على حرف العلة. واظن ان الحميرية (وهي التي سموها السبئية) هي التي رأوها وفيها هذا الضرب من الدلالة على التعريف اعني الوقوف على حرف الغنة (اي النون) فالاولى من ثم ان تقرن بالسريانية وتجعل صنوا لها

لكن هنالك من المشابهة بين العربية والعبرانية في الاضافة ما يؤيد المشابهة الحاصلة من حرف التعريف ويدعمها فان طريقة الاضافة في هاتين اللغتين اعني العربية والعبرانية واحدة. وكذلك هي في السريانية والحميرية (او التي سموها السبئية) قريبة الشبه جدا ان لم تكن واحدة.

ومما يزيد المشابهة بين العربية والعبرانية طريق استعمال الفعل فان الماضي والمضارع يوضع احدهما موضع الآخر كثيرا في كلتيهما كما يظهر ذلك لمن تأمل وهو عارف باللغتين. ويقل اعتمادهما على الصفة واقامتها مقام الفعل كما هو الشائع او الكثير في السريانية. ومن التهجم ان اقول ان السريانية في هذا تشابه الحميرية نظرا لقلة ما وقفت عليه من هذه اللغة ولكني اوجه انظار الباحثين الى هذا الامر

وهنالك مشابهات اخرى بين العربية والعبرانية في الضمائر وحروف المضارعة مما لو جمعت كلها معا لرجح بها جانب الكفة من الوجهة الفيلولوجية كما رجح من الوجهة التاريخية اي ان العربية والعبرانية صنوان من جذم واحد

ان كنت وصلت في طريقة بحثي هذا الى الحقيقة او ما يقاربها او الى ما يدل على الوجهة التي هي فيها فحسبي ذلك. والا فيكفيني أني نبهت الى اهمية مقارنة البحث التاريخي بالبحث الفيلولوجي ولعل الحقيقة اقرب ان تكون في الجانب الذي يتفقان فيه أو على الاقل في الجانب الذي لا يعارض فيه احدهما الآخر او ينافيه. واسمحوا لي ان اختم بتقديم مزيد شكراتي لرئيسنا الفاضل الدكتور هورد بلس الذي دعاني الى درس هذا الموضوع اولا ولكم على ما اوليتموني من المجاملة وحسن الاصغاء ثانيا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اه